

«العقل و العقلانية»

• د. توفيق شومر

-**الفرضيات الذاتية:** وهي تنطلق من القول بوجود قدر عال من الفرضيات والمفاهيم التي نتبناها ذاتياً ونعكسها في فهمنا للمواضيع المختلفة.

وفي تاريخ الأفكار الفلسفية خلال بدايات عصر النهضة، تشكل نوع من الصراع الواضح بين الموقف العقلاني والموقف التجريبي. وإذا أردنا أن نحدد القطبين المتطرفين للموقفين فيمكن اعتبار (الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت) يمكن اعتباره بجدارة أبا العقلانية الحديثة، في الطرف الأكثر صلابة من الناحية العقلانية ، حيث لا يقرب بأي معرفة تجريبية أياً كانت، ويؤكد أن المعرفة لا بد أن تنطلق من الذات العارفة، وهو يشك في كل شيء إلى أن يصل إلى الشيء الوحيد الذي يثق به وهو ذاته القادرة على التفكير وهذه الذات القادرة على التفكير لا بد أنها موجودة ليصل إلى المنطلق الأساسي لأي معرفة ممكنة.

«أنا أشك، إذاً أنا أفكر إذن أنا موجود» وعلى الطرف الآخر نجد المفكر البريطاني فرنسيس بيكون والذي ينكر المعرفة العقلانية بإطلاق ويؤكد أن العقل ما هو إلا مصدر للأوهام التي تربك المعرفة وتشوهها.

المواقف العقلانية الكلاسيكية لا تؤدي بالضرورة بصاحبها إلى التفكير العلمي. فكثير من العقلانيين الأوائل كانوا أبعد ما يكون عن العلمية. فالتفكير العقلاني المتعالي كتفكير أفلاطون مثلاً، يصل في استنتاجاته العقلانية إلى مواقف مثالية كالقول بأن النفس الإنسانية تتعلم في عالم المثل كل ما تعرفه، لكنها عند حلولها في الجسد لحظة الولادة تنسى كل ما تعلمته. وبهذه الحال يصبح التعلم والمعرفة عبارة عن فعل تذكّر، أي أن المعرفة لا تأتي من الخارج بل من النفس، من الداخل، فهي تتذكر ما كانت قد نسيت لحظة الميلاد. وتكتمل القصة الأفلاطونية بالقول بأن العالم الذي نحيا به هو عالم اللا-معقول، والإنسان حبيس الجسد عاجز عن الوصول إلى حقيقة

يعتقد الكثيرون بأن المقصود من العقلانية هو استخدام العقل في الوصول إلى النتائج. بهذا التعريف البسيط يصبح كل من يستخدم عقله عقلياً، وهذا بالتأكيد غير صحيح البتة. فالإنسان يتميز عن المخلوقات الأخرى بقدرته على التفكير، ومن ثم فلكل إنسان القدرة على استخدام العقل وإنتاج الأفكار المعقدة. لكن هذا لا يعني أن من يستخدم عقله يمكن أن يوصف بالعقلاني.

العقلانية هي الموقف الفلسفي الذي يقر بأن المعرفة الإنسانية لا يمكن أن تدرك إلا باستخدام العقل. أي أن العقلانيين هم من يؤكدون أولوية التفكير المنظم العقلاني في الوصول إلى المعرفة. ويناقض العقلانيون، انطلاقاً من هذه الأولوية، المعرفة المبينة على التجربة الخالصة أو المشاعر أو المنطقية من سلطة عليا. ويتضمن الموقف العقلاني عدداً من المواقف المعبرة عن العقلانية، فالعقلانيون ليسوا جميعاً على اتفاق في الطريقة التي يتناولون بها التفكير المنطقي المنظم للوصول إلى المعرفة. ويمكن تصنيف العقلانية الكلاسيكية إلى المواقف التالية:

-**الحدس والبرهان:** ويعتمد هذا الموقف على القول بأننا نصل إلى المعرفة بالحدس؛ وعندما يكون حدسنا سليماً يمكننا أن نصل إلى معارف أكثر قدرة على الصمود. وعندما لا يكون الحدس سليماً، فمن الممكن الوصول إلى نتائج خاطئة. ولكي يتمكن المرء من تدريب حدسه على الفطرة السليمة فلا بد له أن يتقن نوعاً من التفكير البرهاني الذي يعتمد على الاستنباط. وبالتالي لا بد من التوفيق في التفكير العقلاني بين المنطق/البرهان والحدس/الفطرة.

-**المعرفة الذاتية:** إن قدراتنا العقلية تمنحنا القدرة إلى الوصول إلى المعرفة الصحيحة، ويؤكد هذا الموقف على أن القدرات العقلية، وهي جزء من طبيعتنا وقدرتنا على المعرفة هي نتاج هذه الطبيعة.

(*) جامعة فيلادلفيا

الأشياء بل أكثر من ذلك هو لا يصل إلا إلى ظلال صور الحقائق. (بحسب أسطورة الكهف كما قدمها أفلاطون في الكتاب السابع من الجمهورية).

تطورت العقلانية كثيراً عبر العصور، ولا أريد هنا أن أقدم عرضاً تاريخياً لتاريخ العقلانية؛ بقدر ما أريد أن أقدم ومضات توضح المواقف العقلانية الحالية.

تجربة ممكنة بلا نظرية ولا نظرية ممكنة بلا تجربة. ويعود هذا الموقف في الأساس للمفكر الألماني أمانويل كانط. وقد تمكن موقف كانط العقلاني من التأقلم مع العلم النيوتوني إلا أنه فشل في التعامل مع العلم الحديث.

وتتمثل المآخذ الأساسية على موقف كانط العقلاني في نقطتين أساسيتين هما:

(١) اعتبر كانط أن النظريات العقلانية وبالتالي النظريات العلمية والأخلاقية هي معطى عقلاني مطلق يمكن أن تصلح دائماً، أي أنه يعتقد أن الأفكار والنتائج العقلية تحيا خارج التاريخ وباستقلال تام عن أي تطور محتمل لها.

(٢) اعتبر كانط أن قدراتنا المعرفية يمكنها عقلياً أن تصل إلى تفسير الظواهر الطبيعية والعلمية دون التمكن من الولوج إلى ما وراء الظواهر. أي أن معرفتنا تنحصر في الظاهر ولا تتمكن من الوصول للباطن.

تمكن الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار من التمسك بقاعدة كانط في ضرورة العقل والتجربة وللخبرة العلمية والعقلانية، وذلك من خلال تقديمه لمصطلح العقلانية التطبيقية، والتي يمكنها تجاوز الكثير من العضلات المهمة للعقلانيات السابقة بشكل عام.

والعقلانية التطبيقية هي نوع من العقلانية التي تتجاوز الجمود المخل للعقلانيات السابقة والتي تحدد أن الذات العارفة في نهاية التحليل هي المصدر الأساسي للمعرفة. فما نعرفه لا ينطلق فقط من الذات ولكنه يتفاعل بين ذات عارفة وموضوع للمعرفة يكون مصدره في الأغلب مجموعة من المشاهدات الحسية التي يحولها العقل إلى معلومات منظمة بشكل ما.

تنطلق العقلانية التطبيقية من أن المعرفة الممكنة ممكنة بالفعل فقط من خلال العقل وقدرته على محاكاة المفاهيم وربطها والتعامل معها، لكنها أيضاً تقر بأن المعارف التجريبية مهمة أيضاً في سياق المعرفة الإنسانية. وهذا الترابط والتبادل بين العقل والتجربة ينبع من جدلية العلاقة بين الذات والموضوع بين الطبيعة والعقل.

وترى العقلانية التطبيقية أن على العلم أن يكون قادراً دوماً على أن يصوب نظرياته ومعارفه من خلال "جدليات التحليل والتركيب، والتشذيب والبناء، والانتقاء والتحقيق". مما يؤدي إلى تصويب مستمر للعلم في "مبادئه ومواده" وهو بالتالي "جدلي، ليس فقط في دقة مناهجه، بل أيضاً في المثال المزوج لترابطه النظري ودقته الاختبارية". (باشلار: العقلانية التطبيقية ص ٤٠)

الموقف العقلاني لم يبق في حالة جمود مع معطيات التجربة. فقد أدرك العقلانيون بأن التجربة ضرورية بوصفها مصدراً من مصادر المعرفة لكنهم أكدوا أن المعارف التجريبية لا تقدم لنا إلا "معلومات حسية" لا يمكننا من خلالها الوصول إلى أي معرفة نظرية مركبة أو إلى أي معرفة يمكن الاعتماد عليها إلا إذا رافقناها مع المعرفة العقلية المناسبة. فإذا أخذنا أي معرفة بسيطة كمعرفة اللون الأحمر مثلاً فإن الحواس، وحاسة النظر هنا، تلتقط موجات معينة ترسلها إلى الدماغ لكن الدماغ الذي لا يملك مفهوماً ما للموجة الملتقطة لا يستطيع أن يحدد الأحمر. ولذلك فالدماغ غير المدرك مفهوماً للون الأحمر هو بالضبط كالأعمى الذي لا يرى الموجات الملتقطة. أي أن التقاط الموجة لا يؤدي إلى المعرفة ولكن التقاط الموجة وتحديد ما ضمنه من صفات الألوان المعرفية التي حددها العقل الإنساني الجمعي على أنه مصنفات تحدها تعبيرات ككلمة أحمر أو أصفر أو أخضر يمكن العقل من إدراك أن الموجة الملتقطة من العين يمكن ربطها عقلياً مع المصنف اللوني (أحمر). عندها وعندها فقط يمكن للمرء أن يقول إنه وصل إلى معرفة أن اللون الذي يختبره هو اللون الأحمر.

هذا التحليل البسيط لمفهوم الحمرة يصبح أكثر تعقيداً وتداخلاً بين المعلومات الحسية المباشرة والمفاهيم العقلية المترافقة معه. فبينما كنا نتحدث عن مفهوم الحمرة لنفسنا اختباراً لموجة معينة، وجدنا أن اختبارنا للتفاحة مثلاً لا يمكن أن ينحصر ضمن قولنا أن هناك مفهوماً معين اسمها تفاحة. إذ أن التفاحة لا ترتبط فقط بمدخل حسي واحد ولكن بمجموعة من المدخلات الحسية التي توظف الحواس كلها. فمن حيث اللون نجد أن لوناً واحداً لا يعبر عن لون التفاح، بل يجب أن نقول إن التفاح يمكن أن يكون أحمر أو أصفر أو أخضر أو تركيباً منها كلها. وفي كل من الحواس المختلفة يكون عندنا أكثر من مستوى للتفاح. وبالتالي نخرج من "مفهوم" محدد إلى "نظرية للتفاح".

وكلما ارتقينا في تعاملنا مع قضايا أكثر تعقيداً، نستنتج أنه من الصعوبة بمكان أن نفصل المعلومات الحسية عن الفهم النظري المرافق لهذه المعلومات؛ لأن المفاهيم التي نحددها على أنها تعبيرات عن المحسوسات المرافقة للمعلومات الحسية هي تعبيرات نظرية أساساً. وبالتالي نصل إلى صعوبة الفصل بين التجربة والعقل: فلا

العقلانية التطبيقية هي عقلانية تاريخية تربط النظريات العلمية بمرحلتها التاريخية وبارتباطها بالأفكار السابقة لها والأفكار اللاحقة لها.

ولذلك فالتفكير العقلاني العلمي يمكنه أن يحدد التواصل مع الأفكار السابقة أو أن يحدد القطع معها بحسب قرب هذه الأفكار من تفسير الظواهر الطبيعية. وبهذا فإن العقلانية التطبيقية تتجاوز المآخذ الأولى على كانط. كما أنها لا تقر بوجود أي شيء خلف الظاهر، فالظاهر هو ما يمكن الحصول عليه لأنه هو الوحيد الموجود. وبالتالي فعندما تفسر النظريات العلمية ظاهرة ما فإنها تفسرها كما هي دون الدخول في معضلة أن يكون هناك أي معرفة محتملة خلف الظاهر المتاح.

والعقلانية التطبيقية عقلانية اجتماعية. فالعوامل الثقافية- الاجتماعية تؤثر على المواقف العقلانية التي نتخذها في تفسيرنا للظواهر حولنا. ولذلك فإننا نجد باشلار في كتابه فلسفة الرفض (The philosophy of No) يقول للعلماء: لا تسجلوا ما يحدث معكم داخل المختبر فقط ولكن سجلوا أيضاً ما حدث معكم قبل الدخول إلى المختبر.

وبالتالي فالمحاكمة العقلية للمعارف التي يكتسبها الإنسان إما عن طريق التجربة أو من خلال البناء النظري العقلاني المتعالي للمعرفة التجريبية المباشرة تمكن الإنسان من الوصول إلى المعرفة الصحيحة. أي أن المعرفة العقلانية لا يجب فقط أن تعتمد على العقل بل أن تتبنى منهجاً في التفكير العقلاني المنظم الذي يؤدي إلى الوصول إلى نتائج محكمة لا إلى نتائج ظنية.

لقد كان المنطق هو المنهج السائد في التحليل العقلاني إلى وقت قريب، أما اليوم فقد أصبح المنطق منهجاً من مناهج متعددة توصلنا إلى الحقيقة وإلى الاستنتاجات الصحيحة من المقدمات، لكننا اليوم نحاكم المقدمات لا المنهج فقط. ففي المنطق يمكن لاستنتاج ما أن يكون صحيحاً ومنطقياً حتى لو كانت مقدماته غير ذلك. أي أننا يمكن من حيث المبدأ أن نصل ببناء منطقي محكم إلى معلومات خاطئة. وهذا مناف لأعراض العقلانية والتي تريد أن نصل إلى النتائج الصحيحة من خلال تحليلنا العمق للمقدمات. وبالتالي فمن الضروري في البداية أن نحاكم المقدمات وأن نتحقق من قدرة هذه المقدمات على الوصول إلى النتيجة من خلال مجموعة من المناهج التحليلية والنقدية أو من خلال المنطق المباشر.

